

مستقبل التعليم الفني (*)

د . سعيد اسماعيل على

فى كتابه الشهير (مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية) يقفمفكرنا العظيم رفاة الطهطاوى طويلا أمام حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» فيما يرويه الامام مسلم . وهو يقف بصفة خاصة أمام هذه العبارة (علم ينتفع به) ليتساءل عما هو هذا العلم النافع الذى يعد أحد علامات ثلاث تشير الى فوز الانسان فى المعاش وفى المعاد .

فهو بعد أن يؤكد على ضرورة العلوم الشرعية باعتبارها علوم مقاصد ، يجرى الى الفنون والصناعات فيؤكد أن علوم الشريعة لاتتم الا بها ، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، يقول « . فان الفنون والصناعات عليها انتظام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للأمم والآحاد فهى من فروض الكفايات» .

ولم يكن رأى الطهطاوى هذا مجرد ومضة فكر وتحليقا فى أجواء الأمانى والأحلام ، فقد كانت الثقافة فى مصر وكان التعليم فى أوائل القرن التاسع عشر قد بدأ يشهد تحولا جذريا من ثقافة الكلمة الى ثقافة الفعل من ثقافة البيارق والدفوف والأدعية والأشعار الى ثقافة المدفع والبارود والنظام والانتاج . وهكذا كانت أولى معاهد التعليم التى أنشأها مؤسس مصر الحديثة محمد على هى : مدرسة الهندسة سنة ١٨١٦ ومدرسة للمعادن سنة ١٨٢٤ ومدرسة للمحاسبة سنة ١٨٢٧ ومدرسة للفنون والصنائع سنة ١٨٢٩ ومدرسة نبروه للزراعة سنة ١٨٢٨ . وهكذا .

بل لقد أرسلت سنة ١٨٢٩ بعثات صناعية الى النمسا وانجلترا وفرنسا ،

* - كلمة ألقىت بمؤتمر رابطة التربية الحديثة الثالث عشر عن (مستقبل التعليم الفنى) بكلية التربية ، جامعة عين شمس ، يوم ١٢/٧/١٩٩٢ ، بحضور د . حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم .

وكانت بعثة فرنسا لدراسة صناعة البصمة وآلات الجراحة والساعة والصباغة وصناعة الشمع والأقمشة والأسلحة ، أما بعثة النمسا فكانت لدراسة صناعة النسيج الصوف وبعثة إنجلترا لتعلم الميكانيكا وصناعة المدافع والصيني وغيرها . . الخ .

هكذا كان الأمر في هذا البلد منذ قرن ونصف من الزمان . .

كان مفكرو الأمة يعقدون وينظرون ويحللون في سياق واقع تعليمي نسيجه من نفس الخيوط ومن نفس الألوان . .

فماذا أصبح عليه الأمر بعد قرن ونصف من الزمان ؟

علماء التربية وأساتذتها يغمرون سوق الفكر بآيات المديح والتقريظ اعلاء من شأن التعليم الفني . .

معاهد الدولة تضم من تلاميذ التعليم الفني أكثر مما تضم معاهد التعليم العام . . فهل يمكن أن نركن الى هذه المؤشرات لنطمئن على هذا النظام ؟

لا أريد أن أسبق بالاجابة ، فبحوث المؤتمر وندواته ومناقشاته ستتولى ذلك ، لكن ما أحب أن ألفت النظر اليه مقدما ، مؤشرات أخرى :

– فلا أحد منا : أساتذة التربية وعلماءها ، ولا أحد من كبار مسؤولي الدولة عموما والتعليم خصوصا له ابن أو ابنة في التعليم الفني . .

– وعندما طرحنا الورقة الخاصة بهذا المؤتمر على جميع كليات التربية بمصر والوطن العربي ، لم يستجب لنا من بين مئات أعضاء هيئات التدريس الا هذا العدد الذي يتجاوز أصابع اليدين بقليل . .

– عندما وجهنا الدعوة الى أجهزة الاعلام لتغطية وقائع هذا المؤتمر كانت الاستجابة تنبئ بأن هذا الموضوع ثقيل الدم لا يستحق أن يحتل مكانة على الشاشة الصغيرة وموجات الاذاعة وصفحات الصحف . .

تلکم هي النسبة بين حجم قضية التعليم الفني وبين تفاعلنا بها . .

والحق أقول : اننا فى حاجة ماسة الى تقييم خبرة الأمة فى هذا التعليم .

أن الذين ميزوا بين الانسان وغيره ، بأنه كائن ذو تاريخ ، لم يقصدوا مجرد امتلاك الانسان لأبعاد الزمان وأبعاد المكان ، فما من كائن ألا وهو يتحرك فى هذه الأبعاد ، وانما كان القصد هو الوعى بالتاريخ ، وتمثل هذا الوعى فى العمل والسلوك .

وبقدر تقييم الخبرة وانعكاس نتائج هذا التقييم على الخطوة التسمالية يكون موضع أقدامنا على الطريق .

وأرجو ألا أكون متجنبا اذا قلت أن فعلنا فى هذا الشأن كان ضئيلا
ففى فترات متعددة تقوم هبة تغيير من غير أن يكون ذلك نتيجة تقييم علمى موضوعى مدروس يأخذ وقته من البحث .

لقد برزت تجربة المدرسة الشاملة لتقدم صيغة تكامل بين الدراسة النظرية الأكاديمية والعمل الفنى التطبيقي بدلا من تلك القسمة الشهيرة الى تعليم أكاديمى وتعليم فنى ، ولم توفر لهذه التجربة الحدود الدنيا لما هو معروف عن المدرسة الشاملة . واذ كان مؤتمر قد انعقد عن هذه القضية الا أن هذا يختلف تماما عما نقصده ، فهنا باحثون متفرقون ، كل يختار الجانب الذى يريد والذى قد يتكرر مع آخرين . أما التقييم العلمى فهناك فريق يعمل وفق خطة عن قصد، وتوجيه وتضافر بين الدراسات والبحوث .

ويظل السؤال : هل وفرنا مقومات الأخذ بهذا النهج ففشل ؟!

ولقد برزت منذ فترة قصيرة توجهات نحو نهج آخر فى التعليم الفنى يقول بما يسمى النظام المزدوج ، فهل تم ذلك بعد دراسة وتقييم للنظام الحالى القائم ورؤى فشله ومن ثم ضرورة الأخذ بالنظام الجديد بعد دراسة امكانيات وظروف تطبيقه وتوفير الحد الأدنى الضرورى لنجاحه ؟!

وهناك فلسفة تقول بأن التعليم الفنى لاينبغى التعامل معه كنظام وكنسق قائم بذاته ، وانما الأفضل التعامل معه كمنهج وكأسلوب يتخلل مختلف برامج التعليم بحيث تسقط هنا أيضا هذه القسمة الضيزى بين تعليم فنى وتعليم أكاديمى ، فهل بحثنا هذا ودرسناه وتيقنا من عدم صلاحيته ؟!

ان العضلة الكبرى فى قضية التعليم الفنى أنه على الرغم من أنها تبدو مسألة تكنوقراطية يختص بها نفر من الفنيين ، الا أنك لو قلبت جوانبها المختلفة وأمعنت النظر فيها ، فسوف تجد أننا لا بد وأن ننتهى الى طريق شائك ، طريق المسائل الكبرى التى قد يكون فعلنا للتغيير فيها قد لايتعدى حدود الأمانى والأحلام ..

فها هو النظام العالمى اليوم يتمخض ليلد لنا قطاعا (بضم القاف وتشديد الطاء) يسيرون ويوجهون فى الطريق الذى يريدون ، والويل كل الويل لمن يفكر فى ألا يطيع ..

ان هذا من شأنه أن يرسم طريقا للتنمية لا طريق الاله : بفلسفته ونهجه وغاياته . وأخطر ما فى الأمر هنا أن هذا الطريق هو طريق المهمشين الذين يعملون ويكدون ويكدحون ليبنى غيرهم من هذا الكد وهذا الكدح أكثر مما يجنون .

وطريق مثل هذا ، يتطلب تعليما من نوع خاص يتلاءم وأهداف هذه التنمية وفلسفتها .

وبتفاعل هذه المتغيرات العالمية الخارجية مع ظروف ومتغيرات اقليمية، أخذت ديانة جديدة غير معلنة فى التشكل تؤكد عبادة القوة . وليست القوة مذمومة فى حد ذاتها وعلى اطلاقها ، وانما المذموم - كما هو حادث اليوم - أن تكون قوة غشوم تعتبر نفسها مقياس كل شىء ، ان رأيت الباطل حقا فهو كذلك ، وان رأيت الحق باطلا فهو كذلك .

ومن شأن عبادة القوة أن تفرز معها عبادة السلطة ، ومن شأن هذا وذاك وشيوعه أن يضعف قدرة الفكر على وجه العموم والتربوى على وجه الخصوص أن يكون رحما سويا تتخلق فيه السياسات المأمولة لمستقبل الأمة .

ومصدقا لهذا فقد برزت ظاهرة قديمة / جديدة ، هى مايمكن أن نسميهم سوفسطائيو النظام العالمى الجديد . فقديما برزت أثينا كمسرح لظفر من المثقفين والمفكرين يملكون من براعة الاستنباط ومهارة الاستدلال مايقدرون معه على أن يدافعوا اليوم عن قضية ، حتى اذا جاء الغد تكون لديهم القدرة كذلك على أن ينقضوا نفس القضية ببراعة الاستنباط ومهارة الاستدلال ، وأصبح (دراسات تربوية)

كل واحد من هذه الفئة الجديدة / القديمة يحمل مقدارا لا بأس به من الأصباغ
والوان المكياج ليغير فى الطلاء والدهان وفقا لمتغير المواقف والأحوال وتبدل
المظلة التى يقف تحتها .

ولعل هذا يفسر لماذا كان هذا الحرص الواضح من علماء الأمة الأقدمين
على ضرورة أن تظل هناك مسافة بين العالم والأمير ، على أساس
أن هذا يتيح للعالم أن يستمر فى القيام بدوره فى الارشاد
والترجيح ، لكن انتفاء هذه المسافة يجعل هذا الدور قائما على التسويغ
والتبرير . وهكذا رأينا ابن الجوزى ، ان يكتب عن (تلبيس ابليس) يضع فى
مقدمة هذا التلبيس وقوف العلماء بأبواب الأمراء ، ورأينا (المقرئ) يكتب كتابا
كاملا بعنوان : (تبعيد العلماء عن تقريب الأمراء) .

ان الفكر مسئولية ، والكلمة أمانة . ومسئولية الفكر التربوى وأمانة
عالم التربية تفرضان عليه أن يظل محافظا على دوره المفروض ، دوره
الارشادى لا التسويغى . مؤديا دوره المأمول . . التوجيه لا التبرير .

ومن مقتضيات الارشاد والترجيح ، أن يستمر اللاحاح على الركائز
المجتمعية لمنهضة التعليم الفنى خاصة والتعليم كله عامة . وقد يرى البعض
ان تلك الركائز التى سنشير اليها انما هى مقولات كانت تتردد فى ظل نظام
عالمى أنهار ، مما يفرض مقولات أخرى . ونحن نؤكد أن تلك المقولات التى
نشير اليها لم تكن ملكا لنظرية بعينها وللمجتمع بذاته . بل ان سقوط النظرية
وسقوط النظام لايسقط هذه المقولات ، ذلك أن أحد أسباب السقوط أن هذه
المقولات لم تعرف الطريق الصحيح للتطبيق السليم ووقفت عند حد التردد
الكلامى .

أما هذه الركائز فيمكن أن نشير اليها ايجازا فيما يلى :

- تنمية ذاتية تتوجه بأهداف الأمة بالدرجة الأولى وبسواعد أبنائها .
- أما مقولة الاعتماد المتبادل فهى حصان طروادة للتبعية لأنها لاتكون الا بين
انداد ، أما عندما تكون بين قاهر ومقهور فانها ليست الا بين أكل ومأكول .
- ارادة وطنية ، لاتتبدى فى عملية اتخاذ القرار وانما فى صنعه وفى
رسم أهدافه وفى توقيته ، وهى لاتتعارض وانما تتعاقد مع ذلك التوجه
العالمى نحو التكوينات العضوية .

- المشاركة الأهلية التي لا ينبغي أن تتبدى فقط فى تحمل النتائج ومواجهة المشكلات ودفع الفاتورة وإنما تكون حاضرة دائما منذ البدايات حتى النهايات .

(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) الأنعام / ١٥٣ .